العقل طليقا

عند مفكرى اليونان والرومان[1]

ج · ب بيورى

ترجمة وتعليق
الدكتور صالح الشماع

اذا سألنا سائل عما ندين به لمدنية اليونان ، كانت انجازاتهم فى الادب والفن هى أول ما يخطر بالبال • الا ان شيئا آخر احق من هذا قد نفكر به الا وهو كون اليونانيين مؤسسى حرية الفكر والكلام ـ واننا لمدينون لهم فى هذا أعظم الدين • ان حرية العقل هذه لم تكن شرط تأملات اليونان الفلسفية وتقدمهم العلمى وتجاربهم فى حقل النظم السياسية فحسب ، وانما كانت شرط امتيازهم الادبى والفنى كذلك • ان تراثهم الادبى ، مثلا ، ما كان ليظهر فى صورته المعروفة لنا لو حيل بينهم وبين النقد الحر للحياة • الا اننا لو صرفنا النظر عما انجزوه فعلا ، بل حتى وان لم تظهر على ايديهم الآيات العجيبة فى معظم نواحى النشاط البشرى ، فان توكيدهم لمبدأ الحرية ليضعهم فى أعلى درجة من درجات المحسنين الى النوع البشرى ؟ اذ أن هذا المبدأ كان خطوة من أعظم خطوات الارتقاء البشرى •

ليس لنا علم كافٍ عن التاريخ الاول لليونان لنفسر كيف حدث لهم ان بلغوا نظرتهم الحرة الى العالم وامتلكوا الارادة والشجاعة بحيث جعلوا نقدهم واستطلاعهم لا حدود تحدهما أو تقيدهما • ان هذه الخصلة اليونانية هى واقعة ، وما عندنا شىء سواها • الا انه من الناحية الاخرى فقد تألف اليونان من شعوب منفصلة متعددة اختلفت عن بعضها الى حد بعيد فى المزاج والعادات والسنن ، رغم ما كان لهم جميعا من مظاهر مشتركة • كان بعضهم

---

(١) هـذا هو الفصـل الثانى من كتـاب J. B. Bury المسـمى A History of Freedom of Thought نشـرة Home University Library عام ١٩٥٢ •

محافظا أو متأخرا أو غير ذكى بالمقارنة الى البعض الآخر • وسنعنى فيما يلى بلفظ « اليونان » أو « الاغريق » لا جميع هذه الشعوب ، انما ذلك الجزء منهم الذى بلغ شأواً بعيداً من التأثير فى المدنية ، ونعنى به على الخصوص الايونيين والاثينيين •

تقع ايونية فى آسيا الصغرى ، وقد كانت المهد الاول للتأمل الحر • ان تاريخ العلم الاوربى والفلسفة الاوربية ليبدأ فى ايونيه • اذ هنا (فى القرنين السادس وا لخامس ق•م•) حاول الفلاسفة الاولون باستعمال عقلهم ان ينفذوا الى اصل العالم وبنيته • ولم يكن فى امكانهم طبعا ان يحرروا اذهانهم بالكلية من الآراء المأثورة ، الا انهم هم الذين بدأوا العمل لتحطيم الآراء التقليدية والمعتقدات الدينية[٢] • ويمكننا هنا ان نذكر اكسينوفون بصورة خاصة بين رواد الفكر – وان لم يكن أهمهم وأقدرهم – من حيث ان تسامح تعاليمه يوضح لنا حرية الجو الذى عاش فيه هؤلاء الاشخاص • لقد ذهب هذا المفكر من بلدة الى أخرى ، مستفسرا لاسباب أخلاقية عن المعتقدات الشعبية التى يحملها الناس عن الآلهة والآلهات وساخراً من التشبيهية[٣] التى كانت للاغريق عن الآلهة • « لئن كان للثيران ايدى البشر وقدراتهم ، اذن لجعلوا الآلهة فى صورة الثيران • » هذا الهجوم على اللاهوت[٤] المأثور كان هجوما على صدق الشعراء القدماء ، وبخاصة هوميروس[٥] ، وهو أكبر حجة فى علم الاساطير • وقد انتقده اكسينوفون

---

(٢) اشارة المؤلف هنا تقصد المعتقدات الوثنية • الا انه ظاهر لمن يقرأ كتابه ويفهم ما ينويه بين سطوره يتبين انه ينكر لا الوثنية والمسيحية فحسب ، انما هو مع حرية الفكر ونه يفهم هذه الحرية على انها ضد كل تفكير دينى • اننا لا نشاطر المؤلف رأيه فيما يخص الامر الاسلام ولعل لنا كرة الى هذا الموضوع بعد حين •

(٣) أى تلك التى تتحدث عن الآلهة كما لو كانت لهم صفات انسانية ، م •

(٤) اللاهوت بمعنى ذلك الفرع من المعرفة الذى يتحدث عن اله أو آلهة متعددة أو هو فلسفة الدين عامة ، م •

(٥) هو شاعر اليونان الاكبر وصاحب ملحمتى الالياذة والاوذيسة وهى تتحدث عن الآلهة وابطال اليونان واساطيرهم ، م •

بشدة لنسبته أفعالا الى الآلهة لو نسبت الى الناس لعدت من أقبح ما يرمونهم به • ولا ندرى ان هناك أحدا حاول تضييق النطاق عليه فى هجومه على المعتقدات المأثورة أو عده هوميروس ضد الاخلاق • وهنا لا بأس ان نذكر ان قصائد هوميروس لم تفترض أبداً انها كلمات الهية • لقد قيل ان هوميروس الف لليونان توراتهم أو انجيلهم • الا ان هذه الملاحظة تتعدى الحقيقة ، اذ كان من حسن حظ الاغريق ان لم يكن لهم توراة أو انجيل ، وهذه الواقعة قد كانت تعبيرا عن حريتهم وشرط وجودها معا • كانت قصائد هوميروس دنيوية ولم تكن دينية ، ولذا وجدناها أكثر حرية من كتب الدين فى وصف الاباحية الاخلاقية والوحشية • ومع ما كان لهذه القصائد من سلطة عظيمة ، الا ان هذه السلطة لم تبلغ سلطة الكتاب المقدس (لدى اليهود أو النصارى) ، ومن هنا لم يحل دون انتقاد هوميروس من السدود ما حال دون انتقاد التوراة والانجيل •

ويجب ان نلاحظ فى هذا الصدد عن تعبير آخر عن الحرية وشرط وجودها لدى الاغريق ، هذا التعبير يظهر فى عدم تقديسهم للكهنة بالشكل الذى نجده فى المسيحية • ان الاغريق لم يجعلوا من كهنة معابدهم طبقات اجتماعية ذات سلطة وجبروت يهددون بهما المجتمع لتحقيق ما رب شخصية ويسكتون الاصوات ضد العقائد الدينية[٦] • لقد ضبطت السلطات المدنية الاغريقية شئون العبادة لدى جمهور الشعب بيديها ، وحتى وان كان لبعض عوائل الكهنة تأثير قوى ، فقد ظل الكهان بصورة عامة موظفين فى الدولة ولم تعل أصواتهم على صوت الدولة وما كان لها من وزن خاص الا فيما يتصل بتفاصيل الطقوس الدينية فحسب •

لنرجع بعد هذا الى الفلاسفة الاولين عند اليونان ـ وقد كان معظمهم طبيعيين أو ماديين • وسجل تأملاتهم هو فصل جذاب فى تاريخ النزعة

---

(٦) أى العقائد الدينية الاخرى كما حصل فى أثناء محاكم التفتيش اذ اضطهد الكاثوليك كل العقائد الدينية الاخرى حتى المسيحية منها • م •

العقلية الانسانية • وفى امكاننا ان نختار اسمين لامعين من هذه الاسماء هما هيرقليطس وديموقريطس ، فلعلهما ان يكونا ألمع من الآخرين فى التفكير العميق الذى دفع العقل الى النظر الى الكون بأساليب جديدة ، وبفضلهما تزعزعت الافكار غير المعقولة للبداهة العامة المنتشرة بين العامة • وكان مما يثير الخواطر ان يتعلم الناس لاول مرة على يد هرقليطس ان مظهر الثبات والسكون الذى تتخذه الاشياء المادية المحسوسة هو مظهر كاذب ، وان العالم وكل ما فيه هو فى تغير دائب وحركة مستمرة فى كل لحظة • اما ديموقريطس فكان له فضل ابداع النظرية النارية عن الكون ، وهى النظرية التى احييت فى القرن السابع عشر ثانية وربطت فى تاريخ التأمل النظرى بأكثر الآراء الفيزياوية والكيماوية عن اعادة حداثة هذه العقول الجبارة لم يوقفها عن النشاط أية أقاصيص عن الخلق فرضتها عليهم سلطة (كهنوتية) مقدسة •

كل هذا النظر الفلسفى هيأ اولئك الاساتذة المربين المعروفين باسم السوفسطائيين[٧] • ويبدأ ظهورهم بعد منتصف القرن الخامس ق•م• وقد توزعوا فى مدائن عدة من بلاد الاغريق مسافرين هنا وهناك يعدون الشباب الى الحياة العامة ويعلمونهم استعمال عقولهم • وكمربين كانت لهم أغراض عملية • وقد تحولوا عن مشكلات العالم الطبيعى الى مشكلات الحياة البشرية ـ الاخلاق والسياسة • وهنا جابهتهم صعوبة التمييز بين الصدق والكذب ، وكان البارعون من بينهم قد فحصوا طبيعة المعرفة ومنهج العقل ، أى المنطق ، ووسيلة العقل ، أى اللغة • ومهما كانت طبيعة نظرياتهم الخاصة ، فقد سار اتجاههم العام فى سبيل البحث الطليق والنقاش الحر • كما عملوا على فحص كل شىء بالعقل • لذا كان فى امكاننا دعوة النصف الثانى من القرن الخامس (ق•م•) بعصر التنوير[٨] •

---

(٧) « سوفست » فى اليونانية تعنى الحكيم ، و « سوفيا » ، الحكمة ، م •

(٨) هذه مقارنة من المؤلف بعصر التنوير الحديث فى اوربة وهو القرن الثامن عشر ، م •

ان من الممكن ملاحظة ان المعرفة التى اكتسبها الاغريق من البلاد الاجنبية كان لها تأثير واسع النطاق فى نشر اتجاه التشكك ضد السلطة • فاذا تعرّف المرء على عادات بلاده فحسب ، فانها تبدو له مألوفة الى درجة أنه يعزوها الى الطبيعة • لكن حين يسافر الى الخارج ويطلع على عادات ومعايير للسلوك تختلف كلية عن تلك التى عرفها ، عندها يأخذ بتقدير اثر التقليد والمحاكاة ، ويتعلم ان الحياة الاخلاقية والدينية هى أمور نسبية • هذا الاكتشاف يميل الى اضعاف السلطة والتنبيه الى تأملات مثيرة ، كما يحدث لشخص نشأ نشأة مسيحية فاذا تهيأ له وعاش على ضفاف نهر الغنج أو الفرات وجد انه يستطيع ان يؤمن بمعتقدات تختلف تماما عن تلك التى وجدها فى بيئته المسيحية •

هذه الحركات العقلية ، كما هو الحال فى كل العصور ، قد انحصرت فى نطاق الاقلية • اذ ان الجماهير فى كل مكان تؤمن بالخرافة الى أقصى حد • وقد آمنت جماهير الاغريق ان أمن مدنهم يعتمد على حسن نية الآلهة تجاههم • فاذا اثار هذا الاتجاه الخرافى مثير ، كانت هناك امكانية مطاردة التأملات الفلسفية • وهذا ما حدث فى اثينا • فحوالى منتصف القرن الخامس لم تصبح اثينا أقوى دولة يونانية[٩] فحسب ، وانما كان لها المكان المعلى فى الادب والفن أيضا • وآمنت بالدمقراطية اجمالا وتفصيلا • وكان الجدل السياسى حراً تماما • وفى هذا الوقت كان قائدها السياسى بريقلس الذى كانت له شخصية المفكر الحر ـ أو اتصل على الاقل بمختلف التيارات الفكرية التى انتشرت بين الناس فى زمانه • وكان على اتصال دقيق خاصة بالفيلسوف انكساغوراس الذى جاء من ايونية ليعلم فى اثينا • وحمل انكساغوراس آراء متطرفة بازاء الآلهة الشعبية • وقد هاجم خصوم بريقلس السياسيون صديقه الفيلسوف ، اذ ابتدعوا قانونا يحدد درجات الشطحات الدينية ، فاذا كفر أحد بالآلهة أو نشر بدعا عن العالم السماوى امكن له

---

(٩) تألفت بلاد اليونان من دويلات مستقلة ، كل منها مؤلفة من مدينة رئيسية وبعض القرى التى حولها ، م •

ان يتعرض الى اتهاماتهم • وكان من اليسير اعتبار انكساغوراس من ذوى الشطحات لانه علم بان الآلهة ان هى الا تجريدات ، وان الشمس ، التى قدم اليها الاثينى صلواته صباح مساء ، ما هى الا كتلة مشتعلة من المادة • انقذ جاه بريقلس انكساغوراس من موت محتم ، لكن الفيلسوف غرم بغرامة فادحة وترك اثينا الى لامبساتوس حيث عومل بما يستحق من احترام وتشريف •

وهناك أمثلة أخرى تعبر عن اضطهاد المفكرين الذين عارضوا المعتقدات الدينية عند الاغريق • فهذا بروتاغوراس • وهو واحد من أعظم السوفسطائيين ـ نشر كتابا سماه « الآلهة » يبدو انه تعرض فيه الى ان من غير الممكن معرفة الآلهة بواسطة العقل • يبدأ الكتاب بالكلمات التالية : « اذا كان الامر يتصل بالآلهة فانى لا أستطيع ان أقول بوجودهم ولا يسعنى ان انكر هذا الوجود أيضا • فهناك أكثر من سبب يبرر للمرء عدم التصدى لهذا الامر : غموض الموضوع من جهة وقصر عمر الانسان من جهة أخرى • » لقد استعمل فى حق بروتاغوراس قانون الشطحات الآنف الذكر مما اضطر معه الفيلسوف الى الفرار من اثينا • الا ان الاغريق لم تكن لهم سياسة ثابتة فى اضطهاد الفكر الحر • فقد جمعت نسخ من كتاب بروتاغوراس واحرقت ، الا ان كتاب انكساغوراس الذى ذكر فيه وجهات نظر حوكم من أجلها وادين بيع فى أسواق اثينا بأسعار شعبية مناسبة • وقد تحدت أفكار تعبر عن النزعة العقلية بالظهور على المسرح ، على رغم ان الانجازات المسرحية فى اعياد الاله ديونيسوس كانت مناسبات دينية موقرة • وقد تشبع الشاعر يوريبدس بالانظار الحديثة ، ومع اختلاف الرأى حول الاتجاهات المتعددة التى ظهرت فى مآسيه ، بحيث انه كثيرا ما سمح لاشخاص مسرحياته بالتعبير عن آراء تخالف مألوف الناس • وقد تقدم به الى المحاكمة أحد الساسة الشعبيين بتهمة عدم التقوى • وفى امكاننا ان نشم رائحة مخالفة الآراء الدينية فى الثلث الاخير من القرن الخامس بشكل واسع بين الطبقات المثقفة • وكان تأثير أصحاب النزعة العقلية قويا بحيث انهم تمكنوا

من الوقوف فى وجه كل من أراد قمع الحرية ، وكانت السيئة الكبرى لقانون الشطحات هو امكان استعماله لاغراض شخصية أو حزبية • وبعض المحاكمات التى سجلها لنا التاريخ مدفوعة فى رأينا بدوافع انانية ، كما كان غيرها مدفوعا بجمود عقلى راسخ وتهيب من الافكار التى تقدم بها المفكرون الشكاك والطبقات الفارغة عن العمل (المثقفون) • وكان من المبادىء المسلم به عند الاغريق ، ثم عند الرومان من بعدهم ، ان الدين أمر ضرورى ونافع لعامة الناس • اما من لم يؤمن به فقد وجد انه له فائدة كنظام سياسى ، وعلى العموم لم يحاول الفلاسفة ان ينشروا « حقائق » تزعج الجماهير • وكانت العادة ، أكثر مما هو حاصل فى الوقت الحاضر ، ان الذين لا يؤمنون بالطقوس الدينية يكيفون سلوكهم لها من الناحية الظاهرية على الاقل • وما كان التعليم العالى منتشرا بين الشعب كما لم يكن ضروريا فى تربية الساسة والمفكرين الاغريق[١٠] •

ان مثال سقراط لشهير ، وهو ذلك الفيلسوف الذى فكر فى صورة تغاير الشائع المألوف • تميز سقراط بانه كان أعظم هؤلاء المربين الذين تحدثنا عنهم قبل قليل ، وفارقهم فى انه اعطى دروسه مجانا مع ما كان عليه من فقر • وكان تعليمه دائما فى صورة جدل ، وغالبا ما انتهى الجدل الى غير ما نتيجة ايجابية ، لكن كان له اثر فى التشكيك بالآراء الموروثة واظهار ان الحقيقة ليست من الامور التى يسهل تحديدها ، كانت له فى الواقع آراء معينة محددة عن المعرفة والفضيلة ، لها أكبر قيمة فى تاريخ الفلسفة ، الا ان اهميته بالنسبة الى عرضنا الحالى تقوم فى ذلك الحماس الذى اظهره فى الجدل والنقد • لقد علم مناقشيه ـ وكان نقاشه مع كل من كان يستمع اليه دون تمييز[١١] ـ ان يعرضوا جميع المعتقدات الشعبية أمام

---

(١٠) لعل المؤلف يقصد بكلامه الفترة السابقة لافلاطون • اذ نادى افلاطون فى « الجمهورية » ومن بعده ارسطو باهمية التعليم لطبقات الساسة والمفكرين ، م •

(١١) لقد كان المعروف عن جمال الدين الافغانى انه كان يلقى افكاره الى من يستطيع عقله حملها والى من لا يستطيع عقله ذلك ، م •

ميزان العقل ويعالجوا كل بحث بذهن متفتح ، وان لا يحكموا على الاشياء بمجرد ظن مستقى من رأى الغالبية أو ان السلطة قد حتمته • وباختصار طلب سقراط ان نفحص الرأى الواحد بعدة فحوص والا نكتفى بواقعة ان هذا الرأى تقبله الغالبية فحسب • وقد ظهر من بين تلاميذه الشباب أهم فلاسفة الجيل التالى له • وقام بعضهم بدور هام فى التاريخ الاثينى •

ولو امتلك الاثينى صحافة يومية اذن لا تهم الصحفيون سقراط بانه خطر • لكن كانت للاثينى مسرحياته الهزلية وهى التى اتخذت منبرا للاستهزاء بالفلاسفة والسوفسطائيين ، وعدت تعاليمهم باطلا وعبثا • ولدينا واحدة من هذه المسرحيات (« السحب » تأليف اريسطوفانيس) وفيها يسخر المؤلف من سقراط ويصوره فى شخصية تمثل الانظار الهدامة والمخالفة للتقوى • الا انه فيما عدا ازعاجات من هذا القبيل ، فان سقراط عمر الى السبعين عاما من عمره ، معلما على الدوام مواطنيه دون كلل ، من غير ان يمسه سوء • لكن فى سن السبعين تقدموا به الى المحاكمة بتهمة الكفر بالآلهة وبانه مفسد للشباب وحكم عليه بالاعدام واعدم فعلا عام ٣٩٩ ق•م• انه لأمر غريب ، اذ لو عد الاثينيون سقراط خطرا فلم تحملوه طوال عمره يا ترى ؟

انى قلما أشك فى كون دوافع الاتهام سياسية[١٢] • ان سقراط بما عرف عنه من حدة الذكاء ما كان ممكنا له ان يرضى عن تلك الدمقراطية المتطرفة التى عرفتها اثينا ـ ديمقراطية قامت على مبدأ تحقيق ارادة الاغلبية الجاهلة • ولعله كان معروفا فى عطفه على رأى اولئك الذين أرادوا تضييق النطاق على حق الانتخاب • لكن بعد صراع طويل تغير فيه الدستور مرات عديدة تيسر للديمقراطية ان تنتصر عام ٤٠٣ ق•م• وقد ظهر هنا شعور مرارة ضد اولئك الذين لم يعطفوا على مثل هذه الديمقراطية الاثينية ، وقد ذهب سقراط ضحية هذه الطبقة الساخطة • ولو شاء سقراط لهرب ،

---

(١٢) يحيل هنا المؤلف القارىء الى الاستاذ جاكسون كاتب مقالة « سقراط » فى دائرة المعارف البريطانية فى نشرتها الحادية عشرة •

ولو وعد بعدم التعليم لاستطاع فى غالب الظن الحصول على الافراج عنه • وان من بين حكامه ال (٥٠١) من الاثينين العاديين كانت هناك اقلية كبيرة طالبت بالافراج عنه • ولو أراد فى هذا الموقف ان يغير من نغمته فى الدفاع عن نفسه لما حكموا عليه بالموت •

الا ان سقراط اهتبل هذه الفرصة العظيمة فى حياته ودافع عن حرية الكلام بخطبة بلغت حد الاعجاز ، وان جانبت الطرائق المألوفة • وان محاورة « دفاع سقراط » التى كتبها الفيلسوف افلاطون[١٣] ألمع تلامذته ، لتظهر لنا النبرات العامة لهذه الخطبة • ان من الواضح ان سقراط لم يستطع بصورة كافية ان ينفى عن نفسه الاتهام الخاص بعدم اعترافه بآلهة المدينة ، وتفسيراته فى هذا الخصوص هى أضعف موضع فى كلامه • الا انه جابه الاتهام الخاص بافساده عقول الشباب باستنهاضه باجل صورة ممكنة مبدأ حرية الكلام والجدل • وهذه هى الركيزة الراسخة فى محاورة « الدفاع » وانها لتؤثر فينا اليوم كما اثرت مدى العصور • وأهم نقطتين يثيرهما سقراط هما فى رأيى ما يلى :

(١) تمسكه بعقيدة ان الفرد يجب ان يرفض بأى ثمن خضوعه لاى سلطة بشرية أو محكمة تجبرانه على سلوك سبيل يظهر لعقله فساده وافنه • وهنا يقرر سقراط عظمة ضمير الفرد • انه ليعبر عمله طوال حياته على انه بجملته بحث عن الدين ، وانه ليشعر شعورا راسخا انه باخلاصه نفسه للجدل الفلسفى قد لبى نداءاً استلهمه من مصدر فوق بشرى ، وانه بالتالى ليفضل الموت على تزييف مثل هذا الاقتناع الشخصى • انه يجابه حكامه بالقول التالى : « لئن عرضتم علىّ تبرئتى شريطة ان اهجر البحث عن الحقيقة ، فلن يكون جوابى على ذلك سوى ، انى اشكركم ، ايها الاثينيون ، غير انى افضل ان اطيع الله الذى اعتقد انه قد هدانى السبيل ، من ان اطيعكم ، وبالتالى فما دمت أحمل قلبا ينبض بالقوة والحياة فلن افرط

---

(١٣) كان افلاطون فى السابعة والعشرين عند اعدام استاذه ، م •

فى حق مهنتى : اعنى ، الفلسفة • سأواصل مألوف عادتى من الاقتراب من كل انسان اقابله والقول له : الا تخجل من توجيه كل نفسك الى المال والقاب التشريف فى حين انك لا تلتفت الى الحكمة والحقيقة والى رفع مستوى نفسك ؟ انى لا اعلم ما هو الموت ، وقد يكون شيئا حسنا ، ولذا فلا ترانى اهابه • الا انى اعلم ان من السيىء ان يترك الانسان مهنته ، ولذا فانى افضل ما هو خير على ما هو شر » •

(٢) ثم انه يفضل قيمة الجدل الحر على مستوى شعبى • « لقد وجدتم فىّ ناقداً مثيراً ومحفزاً لهممكم على الدوام ؛ بالاقناع أو بالتقريع ، فاحصا على الدوام لارائكم محاولا ان اظهر لكم ما تجهلون مما تدعون العلم به • ان الجدل اليومى للامور التى تسمعوننى احدثكم عنها هو أعظم خير للانسان ـ ان الحياة التى لا تمحص بمثل هذا الجدل لا قيمة لها • »

فى هذا الدليل الذى يمكننا ان نعده أول تبرير لحرية الفكر نجد دعويين ذوى دلالة يحاول سقراط ان يؤكدهما : ما لوجدان الفرد من حق لا يقبل الفسخ ـ وحول هذه الدعوى سيدور كثير من صور الصراع من أجل الحرية فيما بعد ، اما الدعوى الاخرى فهى ما للجدل والنقد من مغزى اجتماعى • الدعوى الاولى لا تقوم على الحجاج بل على الحدس ، انها تقوم فى الحقيقة على التسليم بمبدأ أخلاقى فوق ـ انسانى • وبالتالى فبالقياس الى اولئك الذين لم يختبروا ما أحس به سقراط من تجربة يرفضون مثل هذا التسليم ، ودفاعه فى هذا الخصوص لا اثر له فيهم • أما الدعوى الثانية فبعد فترة تجاوزت الالفى عام ، يمكننا ان نصوغها بصورة أعم ونحملها من المعانى ما لم يحلم سقراط بمثله •

ان ظروف محاكمة سقراط توضح لنا صور التسامح وعدم التسامح التى سادت اثينا • ان حصانته الطويلة ، وواقعة كونه اتهم فى آخر حياته لاسباب سياسية وربما شخصية أيضا ، وان الاقلية الكبيرة وقفت الى

جانبه[١٤] ، كل هذا يدل على حرية الفكر على العموم ، وان عدم التسامح ما كان الا موجة عابرة • بل غالبا ما كان عدم التسامح ليس للقضاء على حرية الفكر وانما لخدمة أغراض أخرى •

وفى امكانى ان اذكر مثال الفيلسوف ارسطوطاليس الذى ترك اثينا بعد قرابة سبعين عاما من حادثة سقراط لانهم هددوه بتطبيق قانون التجديف فى حق الآلهة ، وما كان هذا الاتهام الا تبريرا لهجوم شخصى بسبب انتساب ارسطو الى حزب سياسى معارض • الواقع ان حرية الرأى لم تكن مضطهدة بصورة منظمة ـ أى لم يكن هناك على العموم شىء ضد حرية الفكر كحق مقـــرر •

وقد يبدو غريبا اننـــا حين نبحث عن حرية الفكر واضطهاده فى اليونان لا نلتفت الى غير الفلاسفة • ان افلاطون وهو ابرع تلامذة سقراط ، قد تصور دولة مثالية • واوجد فى هذه الدولة نظاما دينيا يختلف اختلافا كبيرا عن الدين الشائع فى زمانه واقترح ان يقسر المواطنون جميعا على الايمان بآلهته والا عوقب العاصى بالموت أو السجن • وفى مثل هذا النظام استبعد افلاطون كل جدل حر وأقام بين دلته وبين الحرية ستارا حديديا • والامر الطريف فى اتجاه افلاطون انه لم يكن معنيا بصدق الدين أو فساده وانما كانت بؤرة انتباهه متجهة الى كون الدين مفيدا من الناحية الاخلاقية ؛ وكان افلاطون مستعدا ان ينشر النظام الاخلاقى بتصور الاساطير وتأليفها ؛ وهو لم يهاجم الاساطير السائدة فى زمانه لانها كانت كاذبة ، وانما لعدم قيادتها الى التقوى والصلاح •

ان نتـاج الحرية الواسعة التى سمحت بهـا اثينا كان سلسلة من الفلسفات التى وجدت مصدرا عاما لها فى مناقشات سقراط • افلاطون ، ارسطو ، الرواقيون ، الابيقوريون ، الشكاك ـ انه لمن الممكن القول دون

---

(١٤) يقال ان مئتين وعشرين من أصل خمسمئة وواحد من حكامه رفضوا التهمة ـ فى الاقتراع الاول ـ التى وجهت اليه ، لـكن اباء سقراط جعل الغالبية الساحقة تقف ضده فى الاقتراع الثانى عليه ، م •

تردد ان جهود الفكر المتمثلة بهذه الاسماء كان لها اثر فى تقدم الانسان أعمق من أى حركة فكرية موصولة أخرى ، باستثناء العلم الحديث الذى ظهر فى جو جديد من الحرية لم تعرفه البشرية من قبل .

ان تعاليم الابيقوريين والرواقيين والشكاك[١٥] هدفت جميعا الى تأمين السلم والى هداية النفس الفردية . وقد نشرت بصورة واسعة فى خلال العالم اليونانى ابتداءاً من القرن الثالث ق.م. ، وفى امكاننا القول انه اعتبارا من هذا التاريخ الى نهاية العصر اليونانى كانت غالبية المثقفين ثقافة ممتازة من اليونانيين ينتمون الى النزعة العقلية .

وكانت مدرسة ابيقورس ذات اتجاه معارض للدين (الوثنى) . وقد اعتبر الخوف الدافع الاساسى للدين ، ولذا كان غرضه الرئيسى فى فلسفته هو تحرير عقول الناس من هذا الخوف . وكان ماديا ، يفسر العالم بالنظرية الذرية لديموقريطس وينكر ان يكون للآلهة أى سلطان على هذا الكون[١٦] . الواقع ان ابيقورس قال بوجود الآلهة ، لكن فيما يتصل الامر بالانسان كانت هذه الآلهة وكأنها غير موجودة ـ اذ انها تعيش فى مسكن قصى ما متمتعة « بهدوء مقدس وابدى . » ان هذه الآلهة لم تكن أكثر من مثال على تحقيق المثل الاعلى للحياة الابيقورية .

كان فى هذه الفلسفة شىء اوحى الى شاعر فريد العبقرية ان يصورها شعرا . لقد نظر لقريطيوس ، الشاعر الرومانى (عاش فى القرن الاول ق.م.) الى ابيقور على انه المخلص الاكبر للنوع البشرى وعزم على التبشير بفلسفته بقصيدته المسماة .

---

(١٥) ظهرت كل هذه المدارس الفلسفية بعد ارسطوطاليس ، م .

(١٦) لقد قرر الصعوبة اللاهوتية الخاصة بمصدر الشر كما يلى : اما ان الآلهة تريد ازالة الشر ولا تقدر ، أو انها تقدر ولا تريد ، أو انها لا تقدر ولا تريد ، أو انها تقدر وتريد معا . الامكانيات الثلاثة الاولى غير ممكنة ذهنيا والا لما كانت الآلهة جديرة باسمها . لم يبق لنا الا البديل الرابع الذى يجب ان يكون صادقا . لكن لم يوجد الشر اذن ؟ النتيجة هى عدم وجود آلهة بمعنى انها حاكمة الكون ، (المؤلف) .

« فى طبيعة العالم[١٧] » . وبكل ما يتصف به المتدين من حرارة نجد هذا الشاعر ينكر الديانة (الوثنية) ويتحداها ويرميها بكل صفة احتقار وينسب اليها بكلمات محرقة الجرائم التى نتجت عن (التعصب) الدينى . ويتصور نفسه قائد جيوش الالحاد ضد الآلهة . ونراه يفسر المحاجات العلمية كما لو كانت وحيا يهدينا الى عالم جديد . وان الذهول الذى تميز به حماسه لصاحب غريب لعقيدة هدفت الى الهدوء الكامل . ومع ان مفكرى الاغريق قد قاموا بالعمل كله ولم تكن القصيدة اللاتينية (للوقريطيوس) الا دعاء انتصار على آلهة ديست بالاقدام ، فمع ذلك كانت القصيدة جديرة بالاحتفاظ دائما بمكانها العظيم فى أدب الفكر الحر لما اتصفت به من اخلاص وشجاعة متحديه . وكان من الممكن ان يكون لهذه القصيدة قيمة أكبر فى تاريخ النزعة العقلية لو انها انفجرت فى وسط مجتمع متمسك بالسنن الماضية وبمألوف أفكار الاقدمين . الا ان المثقفين الرومانيين فى أيام لوقريطيوس كانوا شكاكا فى أمور الدين ، وكان بعضهم ابيقوريين فى نزعتهم ، وفى امكاننا ان نتصور انه لم يكن كبيرا عدد اولئك الذين فوجئوا بشجاعة فارس الالحاد أو تأثروا به[١٨] .

أما الفلسفة الرواقية فقد أسهمت بصورة ملحوظة فى قضية الحرية ، وما كان ممكنا فى الحقيقة للرواقية ان تنشأ وتترعرع فى بيئة لم يتيسر لها الجدل الحر . اقرت الرواقية حقوق الفرد ضد السلطة الجمعية . وقد لاحظ سقراط كيف ان القوانين يمكن ان تكون ظالمة وان الشعوب قد تخطىء . لكنه لم يهتد الى مبدأ لارشاد المجتمع وهدايته . بينما وجد الرواقيون ذلك المبدأ فى قانون الطبيعة من حيث هو مقدم على كل عادات الشعوب وقوانينها المكتوبة وعالٍ عليها ، وبهذا اسر الرواقيون العالم الرومانى وائروا فى تشريع الرومان .

---

(١٧) يحيل المؤلف هنا الى كتاب R. Y. Tyrrell : « محاضرات فى الشعر اللاتينى » .

(١٨) استعملنا لفظ « الالحاد » فى كل ما تقدم ـ ونحن نعنى معنى خاصا غير معروف فى تاريخ الاسلام ـ يشير الى انكار الآلهة الوثنية ، م .

هذه المدارس الفلسفية الاخيرة هى معبر بين الاغريق والرومان • وفى آخر عهد الجمهورية فى روما وأول عهد الامبراطورية ، لم توضع الفرد قيود على الرأى ، وانتشرت انتشارا واسعا تلك الفلسفات التى تضع الفرد فى المقام الاول • وكان أكثر الناس أهمية فى قيادة المجتمع لا يؤمنون بالدين الرسمى للدولة ، وان وجدوه ذا قيمة فى حفظ الجماهير غير المتعلمة تحت السيطرة • واننا لنجد مؤرخا يونانيا يستحسن كثيرا السياسة الرومانية فى تشجيع الخرافة لمصلحة الجماهير • وكان هذا اتجاه شيشرون ، وكان سائدا بين الملحدين القدماء ان الدين الكاذب ضرورى لتيسير آلة المجتمع • وهذا الاتجاه شائع اليوم بشكل أو آخر[١٩] ؛ أو اننا نرى على الاقل ان الدفاع عن الاديان لا يقوم على أساس انه حق بل على اعتبار ما فيها من نفع • هذا النوع من الدفاع ينتسب الى تلك المهارة السياسية لمفكر كمكيافلى الذى اشاع بين الناس القول بضرورة الدين للحكومة ، وانه قد يكون من واجب رئيس الدولة ان يسند الدين حتى حين يعتقد بكذبه أو فساده •

ويجب ان نقول كلمة موجزة عن لوسيان (القرن الثانى للميلاد) وهو آخر كاتب يونانى لا تزال كتاباته ملهمة لنا الى اليوم • لقد هاجم هذا المفكر الخرافات الشائعة بين الناس باستهزاء علنى • ويستحيل علينا ان نقول ان هجاءه كان له أى أثر فى حينه أكثر من تهيئة جو مرح لاولئك الملحدين المثقفين الذين كانوا يقرأونه • و « زيوس[٢٠] فى دور مأساة » هى من أكثر قصائد لوسيان أثراً فى هذا الباب • فالموقف الذى تصوره الشاعر يمكن مقارنته بما يمكن لكاتب حديث ان يفعله لو أراد ان يشطح[٢١] فيمثل أشخاص التثليث[٢٢] ببعض الملائكة البارزين أو القديسين وقد أخذوا يتجادلون فى غرفة تدخين فى السماء بخصوص النتائج المثيرة

---

(١٩) فى أوساط الغرب طبعا ، م •
(٢٠) رب الارباب فى الميثولوجية الاغريقية واله الاولمب الاكبر ، م •
(٢١) فى نظر المسيحية ، م •
(٢٢) أى القول بثلاثة آلهة هى الاب والابن والروح القدس ، م •

لقلة الايمـان فى انجلترة ، ثم انهم استطاعوا بواسطة جهـاز تلفونى ان يستمعوا الى خصام بين مفكر حر وقسيس فى احدى قاعات النقاش العامة فى لندن • ان مفارقات التشبيه[٢٣] لم تكن موضوع سخرية بارعة عند احد بقدر ما نجدها فى قصائد لوسيان الهجائية (الساخرة) •

كانت القاعدة العامة للسياسة الرومانية هو ان تتسامح مع كل الاديان والآراء فى كل أنحاء الامبراطواية • والشطح أو التجديف فى أمور الدين لم يكن معاقبا عليه • وكان المبدأ هو ذلك الذى قرره المثل السائر للامبراطور طيبريوس : « ان شتمت الآلهة ، فدعها تنظر فى الامر هى نفسها • » لـكن حدث استثناء لهذا المبدأ بالنسبة الى معاملة ذلك الدين الشرقى ـ أى فرقة المسيحية • وقد افتتح هذا الاستثناء تاريخ الاضطهاد الدينى فى اوربة • وانه لمشوق ومثير للانتباه ان نعرف لماذا تبنى اباطرة الرومان ، وهم على ما هم عليه من مقدرة انسانية وعدم تعصب الى أبعد حد ، هذه السياسة الاستثنائية بخصوص المسيحية •

ظل المسيحيون الى وقت طويل بالقياس الى اولئك الرومانيين الذين سمعوا عنهم مجرد فرقة من فرق اليهود • وقد نظرت الوثنية (الرومانية) الى الدين اليهودى ، بسبب ما اتصف به من عدم تسامح وتعصب ضـد العقائد الاخرى ، نظرة ريبة وعدم رضى • الا انه رغم ان اليهودية اصطدمت أحيانا بالسلطات الرومانية وسببت بعض الهجوم عليها دون مبررات كافية دائما ، فان السياسة الثابتة للاباطرة كانت على العموم ترك اليهودية وشأنها والعمل على المحافظة على أرواح اليهود من العداء الذى تسبب فيه التعصب اليهودى نفسه • لـكن بينما تسامحوا مع الدين اليهودى طوال المدة التى كانت اليهودية فيها محصورة ضمن نطاق ابنائها ، فان امكانية بذرها والدعوة اليها عند الآخرين[٢٤] قد خلقتا مسألة جديدة • تثور فى ذهن السياسى

---

(٢٣) أى القول بتجسيد الله (Anthrpomorphism) أو تشبيهه واتخاذ ولد له مثلا كما يقول المسيحيون ، م •

(٢٤) بظهور المسيحية ، م •

مضاعفات شديدة حينما يجد انتشار عقيدة من خصائصها ايمانها الراسخ بانها معادية بصورة اعتدائية لكل عقائد العالم الاخرى ـ رغم ان هذه العقائد الاخرى قد عاشت الى الآن سوية فى وئام تام • هكذا تميزت المسيحية باشتهار المتسمين باسمها فى عداوتهم للنوع البشرى • أليس من الجائز اذن ان انتشار المسيحية خارج نطاق اليهود الاصليين كان مدعاة خطر كبير على الامبراطورية (الرومانية) ؟ كانت روح المسيحية على غير وئام مع أساس المجتمع الرومانى وتقاليده • ويبدو ان الامبراطور دوميتيان قد نظر الى الامر بهذا المنظار ، لذا اتخذ اجراءات شديدة من شأنها الاعتراض على المسيحية انتشارها بين المواطنين الرومانيين • وربما كان بعض الذين ضرب على ايديهم من المسيحيين ، الا انه من حيث نظر هو الى الامر لم يجد فرقا (بين اليهودى الاصلى وبين اليهودى فى ثوب المسيحية) • لقد شابهت المسيحية دين اليهود الذى تفرعت عنه من حيث عدم التسامح ومعاداة المجتمع الرومانى ، ولم تتميز عن اليهودية الا من حيث كثرة من دخل فيها بينما اليهودية لم تستهو الا القليل من الناس •

وفى زمن (الامبراطور) تراجان تقرر المبدأ الذى صار بموجبه كل من يدخل فى دين المسيحية مقترفا لاثم حده الموت • ومن هذا التاريخ أصبحت المسيحية دينا غير قانونى • الا ان تطبيق القانون من الناحية الواقعية كان غير دقيق وغير منطقى • لقد رغب الاباطرة فى محو المسيحية دون اراقة دم ان امكن • هكذا قرر تراجان عدم تعقب المسيحيين ، وان الاتهامات غير الموقعة بأسماء أشخاص معروفين لا يؤخذ بها ، وان المخبرين الذين لا يستطيعون اثبات تهمهم بالادلة يجب عقابهم بالقوانين الخاصة بالتشهير • وقد اعترف المسيحيون انفسهم ان المضمون الاخير لهذه القرارات هو حمايتهم فى حقيقة الامر • لقد كانت هناك حالات اعدام فى القرن الثانى حالات ليست كثيرة نتيجة الفحص ـ وكان المسيحيون انفسهم يغازلون عذاب الاستشهاد وامجاده • وهناك من الادلة ما يثبت ان فرار المسيحى كان مسكوتا عنه فى الغالب من الاحيان • وعلى العموم فان عامة الناس كانوا أكثر اضطهادا

للمسيحية من السلطات • اذ قد شعر الناس بالرعب من هذه الفرقة الشرقية الغريبة التى ابغضت بشكل علنى كل الآلهة وقدمت كل ادعيتها وعباداتها من أجل تدمير العالم • فما حدثت فيضانات أو مجاعات وما شبت على الخصوص نيران الا ونسبها الناس عادة الى السحر المسيحى •

جرت العادة انه اذا اتهم احد بالمسيحية طولب لتحقيق التهمة ان يقدم البخور الى الآلهة أو تماثيل الاباطرة المؤلهة ، فاذا فعل ، اتخذوا من استسلامه واذعانه دليلا على براءته • لكن اعتراض المسيحيين – وكانوا هم واليهود المعترضين الوحيدين – على تقديس الاباطرة جعل الرومان ينظرون الى المسيحية على انها دليل شؤم ونحس خطر • لقد رمز هذا التقديس الى تضامن الامبراطورية ووحدتها – الامبراطورية ذات العدد الكبير من الشعوب والعقائد والآلهة المختلفة ! وما كان غرض التقديس الا سياسيا اذن ، أى توسيع مدى الوحدة والاخلاص ؛ ومن هنا فلا عجب ان اولئك الذين طعنوا فى هذه الوحدة وهذا التضامن وصموا بعدم الاخلاص • ويجب ان نلاحظ انه لم يكن كل مواطن ملزما بالمشاركة فى هذا التقديس • فما لم يكن المواطن جنديا أو موظفا فى الدولة لم يكن مطلوبا منه متابعة طقوس التقديس بأى حال • ولذا كان من نتائج هذا الوضع منع المسيحيين من الخدمة فى الجيش أو فى الوظائف الاخرى فى الدولة •

ان « وسائل الدفاع عن المسيحية » التى ظهرت فى هذا العصر (القرن الميلادى الثانى) كانت تساعد بعض الشىء لو تيسر وقرأها الاباطرة (وكان بعضهم مخاطبين مباشرة بهذه الرسائل) ، نقول هذا لنؤكد نظرية ان المسيحية كانت مجرد خطر سياسى ليس غير • ومن الممكن ان نقرأ بين السطور فى هذه الرسائل ان لو تيسر للمسيحية الظهور لما ابقت شيئا من العبادات الاخرى التى قدست الدولة •

وان الرسالة المعاصرة التى ألفها تاتيان المسماة (خطاب الى الاغريق) لتظهر لنا ان المدافعين قد اخفوا ، قليلا أو كثيرا ، عداءاً محكما للمدنية التى عاشوا فى كنفها • وكل من يقرأ كتابات المسيحيين فى هذا العصر لا يفوته

ان يلاحظ انه فى دولة تشيع فيها المسيحية ما كان ممكنا التسامح مع طقوس أو تعاليم أديان أخرى[٢٥] . ولو استثنى الاباطرة المسيحية فى سياستهم التسامحية ، فما كان لهم من قصد من ذلك سوى حماية مبدأ التسامح عينه .

أما فى القرن الثالث فمع ان المسيحية كانت لا تزال ممنوعة ، فان التسامح معها أصبح أمراً مألوفا . وقد نظمت الكنيسة نفسها بصورة علنية ؛ واجتمعت المجامع الكهنوتية دون اعتراض احد عليها . وكانت هناك بعض محاولات محلية وقصيرة الاجل عملت على التدخل فى شئون المسيحية ، الا انه لم يحدث اضطهاد ملحوظ الا مرة واحدة (بدأه دقيوس عام ٢٥٠م واستمر به الامبراطور فاليريان) . ولم يكن أثناء هذا القرن أى عدد كبير من الضحايا ، رغم ابتداع المسيحيين فيما بعد ميثولوجية[٢٦] تامة عن ضحاياهم فى هذه الفترة .

وبعد فترة طويلة من الاضطراب ، مالت فيها الامبراطورية الى السقوط انتهى عهد الاضطراب على يد الامبراطور ديوقليطيان الذى اوجد اصلاحات ادارية جذرية مما ساعد على حفظ القوة الرومانية متكاملة الى قرن آخر . وقد رغب فى تعضيد عمله من أجل تثبيت أركان التضامن السياسى باحياء الروح الرومانية ولذا نجده ينفخ روحا جديدة فى الديانة الرسمية . وقد عزم لتحقيق هذا الغرض على قمع القوة المسيحية المتزايدة ، وقد كان المسيحيون اقلية كبيرة العدد ، وقد جعل اضطهادهم أمراً منظما . وكان اضطهادا طويلا وقاسيا ودمويا ، وقد مثل هذا الاضطهاد اخلص وأعم مجهود منظم لقمع هذه الديانة الممنوعة . وكانت النتيجة الفشل ، فقد كان عدد المسيحيين الآن أكبر من ان يقمع . وبعد ان تنازل ديوقليطيان عن الحكم ، لم يوافق الاباطرة الذين جاءوا من بعده فى أماكن متعددة من الدولة على

---

(٢٥) يحيل المؤلف هنا الى كتاب بالفرنسية تأليف أ . بوشيه ـ لكليرك عنوانه : « عدم التسامح الدينى والسياسة » (١٩١١) ـ لا يذكر اسم الكتاب الاصلى ـ ويقول عنه انه استعراض قيم للموضوع كله .

(٢٦) Methology هو علم الاساطير ، أو مجموعة الاساطير التى يؤمن بها مجتمع من المجتمعات ، م .

حكمة خطته ، وقد انتهى عهد الاضطهاد ببيانات التسامح التى نشرت عامى ٣١١ و٣١٣م • وفى هذه الوثائق متعة كبيرة لمن يؤرخ عن الحرية الدينية •

يقرر البيان الاول الذى صدر فى الاقاليم الشرقية ما يلى :

« لقد كنا راغبين رغبة خاصة فى اعادة المسيحيين المغرورين الى طريق العقل والطبيعة ، بعد ان رفضوا الدين والطقوس التى قال بها اباؤهم ، واحتقروا بكبرياء سنة القدماء ، وابتدعوا قوانين مسرفة وآراء اوحى بها خيالهم ، وجمعوا مجتمعا مختلف العناصر من شتى اقاليم امبراطوريتنا • ان القرارات التى نشرناها من أجل تثبيت عبادة الآلهة ، قد عرضت الكثير من المسيحيين الى الخطر والبلوى ، وكثير منهم تعرضوا للموت • وكثير آخرون لا يزالون يصرون على حماقتهم المجحفة بحق الآلهة قد اهملناهم دون ان نسمح لهم أى ممارسة علنية لشئون دينهم • واننا مستعدون ان نمنح هؤلاء الاشقياء أجنحة رحمتنا المألوفة • اننا نسمح لهم اذن ان يعلنوا فى مجتمعاتهم الخاصة عن آرائهم بحرية ، وان يجتمعوا فى أماكن عبادتهم دون خوف أو اهانة من جانب الآخرين ، لكن عليهم دائما ان يحترموا القوانين المقررة والحكومة القائمة(٢٧) » •

اما البيان الثانى وكان مؤلفه قسطنطين ويعرف ببيان ميلان فكانت آثاره مماثلة لآثار البيان الاول ، وقد اقام فكرة التسامح على أساس عناية الامبراطور بسلام رعاياه وسعادتهم واماله بتهدئة الآلهة التى تسكن السماء •

ان العلاقة بين الحكومة الرومانية والمسيحيين قد اثارت المسألة العامة الخاصة بالاضطهاد وحرية الوجدان • فهذه دولة لها دينها الرسمى ومتسامحة بصورة تامة مع كل العقائد والطقوس تجد جماعة قامت فى وسطها تعادى بصورة لا تقبل أى حل وسط أى عقيدة أخرى ، ولو استطاعت حين تتوفر لها الفرصة لقضت على كل هذه العقائد الاخرى • فليس لحكومة هذا موقفها وفى سبيل الدفاع عن نفسها الا ان تصمم على ايقاف مثل هذه الآراء التى

---

(٢٧) ينقل المؤلف هذا عن ترجمة غيبون Gibbon وهو مؤرخ مشهور اشتهر بكتابه عن الامبراطورية الرومانية حتى سقوطها ، م

تنشر الفتنة وتجعل كل من يعتقد بهذه العقيدة مجرما ، وليس هذا لان الحكومة تعارض العقائد الخاصة لهذه الجماعة الناشزة ، وانما لانها لا يمكن ان تقبل بالنتائج الاجتماعية لهذه العقائد • ان أعضاء المجتمع الرومانى لم يسعهم التخلص من عقيدتهم الا على أساس مخالفة ضمائرهم واستجلاب لعنة الآلهة عليهم • هكذا تقرر مبدأ حرية الضمير على أساس انه اسمى واجبات الدولة ، ولكى تحقق الدولة لمجتمعها هذا الادعاء ما كان لديها سوى اضطهادا المسيحيين (الذين لم يسمحوا لعقيدة أخرى ان تعيش الى جانب عقيدتهم) •

ان اضطهاد المسيحية لم يكن أمراً مقبولا من وجهة نظر التراث الوثنى ، اذ كانت اراقة الدم بلا فائدة • وبكلمة أخرى كان هذا الاضطهاد غير ناجح ولذا يعد غلطة كبيرة • لكن هذا الاضطهاد كان اختيارا بين شرين • فاما عنف (ولن يستطيع أى مدافع عاقل عن الاضطهاد ان ينكر ان العنف هو شر فى ذاته) واما انتشار آراء خطرة • واختيار الانسان للبديل الاول يجنبه البديل الآخر على انه شر أكبر • لكن ان لم يلجأ المرء الى الاضطهاد ويحققه كى ينجز الغرض المطلوب ، فستكون النتيجة شرين بدل شر واحد ، ولا شىء يبرر هذا الوضع الاخير • كان للاباطرة من ناحيتهم وجهة نظر وأدله وجيهة على أساسها رأوا المسيحية عقيدة خطرة ومعادية للمجتمع ولم يكن لديهم الا تركها وشأنها أو اللجوء الى أساليب منظمة لتدميرها ، ولو لجأوا فى المراحل الاولى من ظهورها الى وسائل ساحقة كتلك التى استعملها أصحاب محاكم التفتيش[٢٨] ، اذن لقضوا عليها القضاء الاخير • وهذا أمر تبرره الحنكة السياسية على الاقل • الا انه لم يكن للاباطرة أى فكرة عن الوسائل المتطرفة ، ولم تكن لديهم التجربة الكافية فى هذا الخصوص لرشدهم الى وجوه المشكلة التى أمامهم • لقد رجوا أول الامر ان يتم نجاحهم بالتهديد ، وكانت وسائلهم فى القمع متهيبة مترددة ، بل ومتهورة وعديمة الجدوى بشكل يثير السخرية • والاضطهادات التى تمت فى

---

(٢٨) من المسيحيين المتأخرين ضد المسلمين وغيرهم ، م •

٢٥٠م و٣٠٣م لم يكن هناك أمل فى نجاحها • ويجب ان نلاحظ على الخصوص ان احدا لم يحاول أى شىء للقضاء على وسائل النشر المسيحية •

وهناك مشكلة كبرى لم ينظر فيها احد وهى امكانية تبرير الاضطهاد حتى وان بلغ الغاية المقصودة منه • وتركز الصراع على أساس التعارض بين ضمير الفرد وبين السلطة وما تفترضه الدولة لنفسها من مصالح • وهذه المسألة التى اثارها سقراط ، تثور الآن من جديد فى اطار موسع وفى مظهر أكثر روعة واستفزازا : ماذا يمكن ان يحدث حين تتعارض سلطة القانون مع سلطة سيد غير منظور ؟ هل يجب على الدولة ان تحترم ضمير الفرد بأى ثمن وبأى حدود ؟ لم يكن للمسيحيين جواب هذه المشكلة وما اثارتهم هذه الاستفهامات كلها أو لفتت انظارهم اليها • وقد ادعوا حق الحرية لانفسهم فقط دون سواهم كأن لا طاعة عليهم لحكومتهم غير المسيحية • وربما لا نذهب بعيدا لو تصورنا انهم كانوا يرحبون بالحكومة لو قمعت العقائد الغنوصية[٢٩] عادتها المسيحية وتنبأت لها بشناعة المصير • وعلى أية حال لو انشئت دولة مسيحية لتناست بالمرة المبدأ الذى احتمت به وتوصلت بطريقه الى الحكم • لقد ذهب الشهداء ضحية من أجل مسألة تخص الضمير وليس دفاعا عن الحرية • اننا اليوم نرى أعظم الفرق المسيحية تطلب حرية العقيدة فى الدولة الحديثة التى ليس لها سيطرة عليها ، لكن هذه الفرق نفسها لا تعترف ـ حين تكون لها السيطرة ـ بتنفيذ الحق نفسه الذى تطالب به الدول الحديثة •

ولو استعرضنا التاريخ الكلاسيكى (اليونانى ـ الرومانى) القديم بصورة عامة لوجدنا ان حرية الفكر كانت ضرورية كالهواء الذى يستنشقه الناس • لقد كان هذا الحق معترفا به من الجميع بحيث لم يناقشه أحد • ولئن عوقب سبعة أو ثمانية مفكرين فى اثينا لآرائهم الناشزة ، ففى بعض هذه الحالات بل فى معظمها لم يكن النشوز الفكرى الا عذرا ـ وما كان

---

(٢٩) الغنوص بالاغريقية يعنى المعرفة • واصحاب مذهب المعرفة هم من ذوى التعاليم الفلسفية الشبيهة بتعاليم المتصوفة الاشراقيين عندنا ، م •

هو سبب العقاب الحقيقى • وهذه الحالات لا تنفى الوقائع العامة عن ان تقدم المعرفة لم يقف فى سبيله فى العهد الكلاسيكى أى تعصب ، وان العلم لم يحل دون سيره الى الامام عوائق سلطة جاهلة • وكان الاغريق المثقفون متسامحين لانهم جعلوا العقل رائدهم ولم يخضعوا العقل لحاجز السلطة • ولم تسيطر الآراء الجديدة الا بعد مرحلة الجدل ؛ وما كان مفروضا فيك ان تثاب « بملكوت السماء »(٣٠) كطفل صغير أو ان تحنى عقلك أمام سلطة تدعى لنفسها العصمة •

الا ان هذه الحرية لم تكن نتاج سياسة شاعرة أو اقتناع ارادى ، ومن هنا جاءت مزعزعة • ان مشكلات حرية الفكر ، من حرية دينية وتسامح ، لم تفرض على المجتمع ولم ينظر اليها الناس بصورة جدية • وحين جابهت المسيحية الحكومة الرومانية لم يستثر احد اهمية مبدأ ذى اعمق جذور اجتماعية فى معاملة جماعة دينية ضئيلة العدد عامضة المنشأ ، وكان حالها بالنسبة الى المفكرين الوثنيين مثيرا للاحتقار والاهمال • لقد قامت الحاجة الى خبرة طويلة لنظرية الاضطهاد وتطبيقاته من أجل تقرير حرية الفكر بصورة سليمة وأمينة • ان السياسة المكفهرة للعنف التى اتبعتها المسيحية فيما بعد ، وما كان لها من نتائج ، ارغمتا العقل فى النهاية على مصارعة المشكلة واكتشاف ما يبرر حرية العقل • ان روح الاغريق والرومان ، وهى الدوحة الحية فى آثارهم ومؤلفاتهم ، لتثير ثانية بعد فترة ركود طويلة تناسيناها واهملناها ، وانها لتساعد العالم اليوم لتعيد بناء مجد العقل الذى تمتع قدماء الاغريق والرومان بثماره وان لم يعتنوا كثيرا بتأمين جذوره •

---

(٣٠) هذا اقتباس للمؤلف من الانجيل وقصده ان يدحض احد براهين المسيحية ، م •